﴿وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ٣٥﴾ [الزخرف: 35]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

صدرُ الآيةِ ألَّفَ بينَ باقي أجزاءِ معانيها وبين الآيتَينِ اللَّتينِ قبلَها

لَمّا بيَّنَ تعالى في السِّياقِ القريبِ أنَّه لو شاء أن يجعل للكافرين لبيوتهم سقفًا مِن فضَّة ومعارج عليها يظهرون، وأنْ يجعل لبيوتهم أبوابًا وسُرُرًا لفعل ذلك؛ بيَّن في صدرِ هذه الآيةِ: أنَّه كذلك لو شاء أن يجعلَ لهم زخرفًا لفعل؛ فيحصلُ لهم الكمالُ في حياتهم الدُّنيا؛ لأنَّه يُفسَّرُ بالذَّهب وبالزِّينة وبهما معًا، ثمَّ عقَّب على مجموعِ الزُّخرفِ وما هو مِن تمامِه بأنَّه ليس إلّا متاعًا للحياةِ الدُّنيا، ثمَّ قرَّرَ شرَفَ أهلِ الإيمانِ بالرَّحمنِ؛ إذ يختصّون بنعيمِ الآخرة الَّذي مِن شأنِه البقاءُ، وأمّا متاعُ الدُّنيا؛ فمِن شأنِه الفناءُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَزُخۡرُفٗاۚ﴾: الزُّخْرُفُ في اللُّغَةِ: الزِّينةُ وكمالُ حُسْنِ الشَّيءِ فيها، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ [يونس: 24]، ونحوَ هذا قال ابنُ عبّاس: يريدُ جمع الزّينة، والمُزخرَفُ: المُزيَّنُ، والتَّزخْرُفُ: التَّزيُّنُ، وكلُّ ما زوِّقَ، وزُيِّنَ؛ فقد زُخْرِفَ، وقالَ الفرّاءُ: الزُّخْرُفُ هنا الذَّهَبُ؛ لذِكْرِ الفِضَّةِ مِن قبلُ، وقيل: هو الذَّهَبُ والغِنَى، وعلَّق عليه ابنُ منظورٍ بأنَّه أشْبَهُ الوجهيْنِ بالصَّوابِ، والأعلى في سياقِ المبالغة في تقريرِ نعيمِ أهلِ الدُّنيا مِن الكفرة والمشركينَ، وحَمْلُ الزُّخْرفِ على ما قالَه ابنُ عبّاسٍ، أي: ذهبًا وزينةً عامَّةً كاملةً[1].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 38، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 27، وابن منظور، لسان العرب: (زخرف).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مآلُ متاعِ الدُّنيا الفناءُ، وشأنُ نعيمِ الآخرةِ البقاءُ

يقولُ تعالى: لولا أنْ يرغب النّاسُ في الكُفْر؛ إذا رأوا الكافر في سعةٍ مِن الرِّزْق، ويصيروا أمَّة واحدةً في الكفر؛ لجعلنا لمَن يكفر بالرَّحمن زخرفًا، أي: زينةً مِن سُتورٍ ونمارقَ ونقوشٍ، أو ذهبًا، أو زينةً وذهبًا، وما كلُّ ذلك النَّعيم مِن صريحِ السُّقُفِ والمعارجِ والأبوابِ والسُّرُرِ والزُّخْرُف، ومِن ظِلال ذلك كلِّه؛ لفظًا ونظْمًا: إلّا شيءٌ يُتمتَّع به في الحياة الدُّنيا الزّائلة الحقيرة، وهذا هو الأصلُ في ذلك؛ وإنْ خفِي عن بصائرِ الكافرين والعُصاة، وأمّا أهلُ الإيمانِ والتَّقوى؛ فلَهُم نعيمُ الآخرة، لا يشاركهم أحدٌ فيه، وهو نعيمٌ أيُّ نعيم؟ هو نعيمُ الرَّبِّ المُحْسِن العظيمِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ التَّعبير بالزُّخْرُفِ مادَّةً وصِيغَةً:

ما عند الله خيرٌ لعباده المتَّقين

الزُّخْرُفُ في اللُّغة الزِّينة وكمالُ الشَّيء فيها، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ [يونس: 24]، ونحوَ هذا قال ابنُ عبّاس: يريدُ: جمع الزّينة[1]، وإنَّما عبَّر القرآنُ بالزُّخْرُفِ؛ إشارةً إلى أنَّ اللّه لولا أنْ يكون النّاسُ أمّةً واحدةً في الكُفْر؛ لجعَل لمن يكفرُ به غايةَ السَّعَةِ في الدُّنيا، مِن عظيمِ الرَّفاهيةِ والنَّعيم، قال البقاعيُّ: ودلَّ القرآنُ على ما لا يتناهَى مِن غير السُّقف والمعارج والأبواب والسُّرُر بقوله: ﴿وَزُخْرُفًا﴾، أي: ذهبًا وزينةً عامَّةً كاملةً[2]، وفي التَّعبير به أيضًا إيماءٌ إلى فناءِ الدُّنيا وانتهائها وأفولِها، فيكون فَرْشًا لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قال البقاعيُّ: "ولَمّا كان لفظُ الزُّخْرُف دالًّا على كون ذلك أمرًا ظاهريًّا

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 38.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 27.

مُتلاشِيًا عند التَّحقيق؛ دلَّ عليه بقوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ الآية"[1]، ويؤيِّدُ هذا قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ [يونس: 24]، وهذا سِرُّ الاقترانِ بين: ﴿وَزُخۡرُفٗاۚ﴾ و: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ في آية مستقلّةٍ.

سِرُّ تأخير ذكر الزُّخرف:

إذا كـمـلَ النَّعيمُ؛ أوشك فناؤُه

عطَف القرآنُ قولَه تعالى: ﴿وَزُخۡرُفٗاۚ﴾ بالواو على قوله تعالى: ﴿وَسُرُرًا﴾؛ ويجوز أنْ يكون مفعولًا لفعلٍ محذوفٍ يُفسِّرُه الجَعْلُ المذكورُ في قوله تعالى: ﴿لَجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الزخرف: 33]، أي: وجعلنا لهم زخرفًا، ويجوز أنْ يكونَ الأصلُ: سقفًا مِن فضَّة وزخرف، أي: بعضُها مِن فضَّة، وبعضُها مِن ذهَبٍ، فيكون قولُه: ﴿وَزُخۡرُفٗاۚ﴾ منصوبًا بالعطف على محلِّ: ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: 33]؛ لأنَّ الزُّخرف يُطلق على الذَّهب؛ لأنَّ الذَّهب يُتزيَّن به[2]، وإنَّما أخَّرَه القرآنُ في الذِّكْرِ؛ نظَرًا إلى كونِه تمامَ نعيم الدُّنيا وشهواتها وزينتها، فقد قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ [يونس: 24]، وهذا جارٍ على تفسيرِه بالزِّينة، وعلى تفسيرِه بالذَّهب قال ابن عاشور: "وابتُدِئَ بالفضَّة؛ لأنَّها أكثر في التَّحليات، وأجملُ في اللّون، وأخَّر الذَّهبَ؛ لأنَّه أندرُ في الحُلِيِّ، ولأنَّ لفظَه أسعدُ بالوقف؛ لكون آخِرِه تنوينًا ينقلبُ في الوقف ألفًا، فيناسب امتداد الصَّوت، وهو أفصحُ في الوقف"[3]، وأسرارُ التَّأخيرِ على هذَيْنِ التَّفْسيرَيْنِ تُقال على وجه جوازِ "أن يكون لفظ: ﴿وَزُخۡرُفٗاۚ﴾ مستعملًا في معنييه استعمالَ المشترَك، فلا يرِد سؤال عن تخصيص السُّقف والمعارج بالفضَّة"[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 27، وبتصرّف.

(2) الزمخشري، الكشاف: 25/ 137 - 138، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 206، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7: 83 - 84.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 206.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 206.

سِرُّ الوَصْلِ بالواو في: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ﴾:

المعطوفُ إبلاغٌ في كَشْفِ حقيقة المعطوف عليه عند الله

قولُه تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: عاطفةٌ لِما بعدها على مجموعِ قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الزخرف: 33] إلى قوله تعالى: ﴿وَزُخْرُفًا﴾؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْنِ؛ فكلاهما خَبَرٌ لفظًا ومعْنًى؛ والمعطوفُ تعليقٌ على المعطوفِ عليهِ؛ "والثّاني مُتمِّمٌ لمعنى الأوَّلِ وجامِعٌ له ومُحقِّقٌ له؛ لأنَّ جَعْلَ سقف الفضَّة والمعارج والأبواب والسُّرُر، لِمَن يكفرون بالرَّحمن إنَّما كان؛ لأنَّه كأنَّه لم يكُن؛ لأنَّه كلَّه متاعُ الحياةِ الَّتي كُتِب عليها الفناء، والموصوفةِ بالدُّنْيا، وهذا موصولٌ بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: 32]"[1].

التَّوجيهُ البلاغي لقراءتَي قولِه: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا﴾:

مهما كثر متاع الـدُّنـيـا؛ فهو زخرفة زائلة

قولُه تعالى: ﴿لَمَّا﴾، قرأه عاصمٌ وحمزةُ وابنُ جمّاز وهشامٌ بخلف عن الحُلْواني بتشديد الميم، بمعنى: (إلّا)؛ فهي أخت (إلّا) المختصَّة بالوقوع في سياق النَّفي، وتكون (إنْ) نافية، والمعنى: (وما كلُّ ذلك إلّا متاع الحياة الدُّنيا)، وقرأه الباقون بالتَّخفيفِ ﴿لَمَا﴾، وكذلك هشامٌ مِن بقيَّة طرقه، فـ: (إنْ) هي المخفَّفة مِن الثَّقيلة، واللّام فارقة، و(ما) مزيدةٌ للتَّأكيد بين المضاف والمضاف إليه[2].

وقراءةُ التَّشْديد تفيدُ القَصْر، وأنَّ كلَّ ما ذُكِرَ مِن سقف الفضَّة والزُّخرف والمعارج والأبواب والسُّرُر: متاعٌ زائلٌ، يزولُ بزوال الدُّنيا، وكلُّ نعيم لا محالةَ زائلٌ؛ وهذا تعقيبٌ جيِّدٌ على ما قبلَه، وتمهيدٌ جيِّدٌ[3]، وقراءةُ التَّخفيفِ تعني أنَّه في الجملة مُكوِّنات بلاغيَّة ذات قيمة في دلالتها على العناية بمعنى الجملة، وليس فيها معنى

(1) محمد أبو موسى، آل حم، الشورى الزخرف الدخان، دراسة في أسرار البيان، ص: 353.
(2) الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 495، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 209، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 207.
(3) محمد أبو موسى، آل حم، الشورى الزخرف الدخان، دراسة في أسرار البيان، ص: 352.

القصر، هذه المُكوِّناتُ هي (إن) المخففة من (إنَّ) التَّأكيديَّة، وضميرُ الشَّأن المنوي بعدها، وزيادة (ما) للتَّأكيد؛ فإذا طرَقت النَّفْسَ هذه المؤكِّدات؛ استشرفت لمدلول الخطاب، وتشوَّقت لما سيُلقى إليها من بيان هوان الدُّنيا وزخرفتها.

علَّة التَّعبير بـ: ﴿كُلُّ﴾:

مَـن أحـاطَـتْ به الدُّنيا؛ لم يكَد يخرُج منها

عبَّر القرآنُ بكلمة: ﴿كُلُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وهي مِن ألفاظ العموم، بل هيَ أعمُّ ألفاظِه، وأضافَها إلى لفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يستحضرُ جميعَ ما يَصْدُقُ عليه اسْمُ الإشارةِ مِن السّياقِ القريبِ؛ إبلاغًا في تقرير المعنى النّاتج عن الإسنادِ، أي: في تقرير معنى أنَّ ذلك النَّعيم متاع الحياة الدُّنيا؛ فالجملةُ أفادت في نورِها أنَّ كلَّ جزءٍ مِن أجزاءِ النَّعيم السّابق ذكرُه متاع الحياة الدُّنيا، وهذا ضربٌ مِن الإيجاز مِن جهةٍ، وتوكيدٌ وتحقيقٌ لمضمون الكلام مِن جهةٍ أخرى.

سِرُّ إفراد: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ﴾:

الكثيرُ العظيمُ في ميزان البشر قليلٌ حقيرٌ في ميزان الله

يشيرُ الإفرادُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾، وقوله: ﴿مَتَٰعُ﴾ إلى حقارة الدُّنيا ودناءتها وهوانها على الله ﷻ؛ إذ لولا الفتنة؛ لخَصَّ اللهُ بها الكافرينَ به، والإفرادُ على هذا ناظرٌ إلى قوله: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾، فهو توطئةٌ له، وفي هذا إبلاغٌ في تحقيقِ مضمونِ الجملة.

علَّةُ التَّعبير بالمتاع:

الـحُـكْـمُ على كلِّ ذلك بالمتاعِ يُحرِّك النَّفْسَ المُنصِفة للتَّفكير فيه

قولُه تعالى: ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: خبرُ قوله: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾، والخبرُ وصفٌ في المعنى لصاحبِه، والقرآنُ عبَّرَ بالمتاعِ؛ للتَّنبيهِ على فناءِ ذلكَ النَّعيم؛ وإنْ طالَ؛ لأنَّ مادَّة: (متع) تدلُّ على منفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ[1]، قال الرازيُّ: "وإنَّما سمّاه متاعًا؛ لأنَّ الإنسان يستمتعُ به قليلًا، ثمَّ ينقضي في الحال"[2]، فكيف يكونُ موقفُ النَّفْسِ العاقلةِ

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (متع).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 209.

المُنْصِفة مِن ذلك المتاعِ الَّذي له حدٌّ ونِهايَةٌ؟ هل ستَسْتَمْسِكُ به؟ أم بالنَّعيم الباقي؟

دلالةُ تعريف ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ بـ(ال):

يعهد الإنسان الشَّهوات؛ ما دام حيًّا

(الـ) في: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ للعهد الذِّهْني، أي: الحياةُ الَّتي هي القوَّة الحسّاسة، والَّتي بها سُمِّي الحيوانُ حيوانًا، وهي ضِدُّ الموتِ، ففي تعريفها استحضارٌ لها في الذِّهْنِ، وهذا يعني استحضارَ ما فيها مِن متاعٍ، كالسُّقُف والمعارج، والأبواب والسُّرُر، والزُّخرف، وفي هذا تمكينٌ لمعنى الكلام في النَّفْسِ.

فائدةُ ذِكر الموصوف ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾:

في ذكرِه كمالُ اعتداد بالمتاعِ؛ ترغيبًا في مطلق الانتفاع به

قد يذكر القرآن الموصوف بالدُّنْيا - وهو الحياة - وقد لا يذكُره، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: 85]، وقوله سبحانه: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ [البقرة: 114]، وإنَّما ذكَر القرآنُ الحياةَ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لبيانِ أنَّ كلَّ ذلك - مِن السُّقُف وما جاء بعدَه - مِمّا يحيا به الإنسانُ، ويدخلُ في حياتِه، واستمرارِها، وكمالِها، وتمامِها؛ ولذلك تكونُ فتنتها شديدة.

فائدةُ الوصف بـ﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

أهـلُ الكفرِ استبدلوا الأعلى نعيمًا بالأدنى فيه

وصَف القرآنُ الحياة بالدُّنوِّ في قوله تعالى: ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، "أي: الَّتي اسمُها دالٌّ على دناءتها، وأنَّ لها ضرَّةً، هيَ الآخرة، وهو منقطِعٌ بالموت"[1]، فالوصفُ تصريحٌ بقَصْدِ السِّياقِ، مِن بيانِ حقارةِ الحياةِ في الدّارِ الدُّنْيا، وقلَّة شأنها، وهوانِها على الله ﷻ، بالنَّظَر إلى الحياةِ في الدّار الآخرة؛ لأنَّ السَّعادةَ في الدّار الأولى فانية، والسَّعادة في الدّار الآخرة أبديَّةٌ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 27.

دلالةُ الإضافة في: ﴿مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾:

صفةُ المُضافِ إليهِ مُعتبَرةٌ في التَّعريفِ بالمضاف

حكَم القرآنُ على السُّقُف والمعارج والأبواب والسُّرُر والزُّخرُف بالمتاع، وأضافَ المتاعَ إلى الحياة الدُّنيا، فأفْهَمَتِ الإضافةُ أخْذَ المتاعِ حُكْمَ الموصوفِ مع ضميمة صفته: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾، فهو متاعٌ يحيا به الإنسانُ، فهو ينجذبُ إليه، ويُقبل عليه، ثمَّ عليه أيضًا أن يَحذر منه، فلا يَغرق فيه، بل عليه أن يتَّخذَه وسيلةً إلى ما هو أعلى منه وأفخمُ، وأشرفُ وأعظمُ، وهو نعيمُ الآخرة.

سِرُّ الوَصْلِ بالواو في: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾:

الجملةُ المعطوفةُ مُمسِكةٌ بسلسلةٍ مِن المعاني قبلها

قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ معطوفةٌ بالواو على ما بعد الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بين الكمالَيْن، فكلٌّ منهما خبرٌ في اللَّفظ والمعنى، وحسَّنَ الوَصْلَ بالواو بينهما ما بينَ المُتعاطفَيْن مِن تقابُلٍ، معَ ضميمةِ استحضار الآيتَيْن اللَّتَيْن قبل المعطوفِ عليه مِن أوَّلِ قوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الزخرف: 33]، فالآخرة تُقابلُها الحياةُ الدُّنيا، والمتَّقونَ يقابلُه مَن يكفرُ بالرَّحمن، ورأسُ المتَّقينَ المُخاطَبُ بقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ ﷺ.

دلالةُ تعريف ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾ بـ(ال):

لا دارَ في الحقيقة إلّا الآخرة

قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾، هي الحياةُ الآخرةُ المقابلةُ للحياة الدُّنيا، والقرآنُ مِن سُنَنِه أن يُحدِّثَ عنها أمَّةَ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، أمَّةَ الدَّعوة، وأمَّةَ الإجابة، فهي معهودةٌ لهم جميعًا، مِن هذه الجهةِ، ولا شكَّ أنَّ ذلك يُحْضِرُ في أذهانِهم ما سبَق أن تلقَّوه، فيساعدهم على الإحسانِ في تلقّي المعاني، وفقهِها فقهًا ينحو بهم نحوَ الصَّواب، وعلى هذا كون (الـ) في ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾ للعهد.

علَّة التَّعبير بـ(الآخرة):

عبَّرَ القرآنُ عن دار الخلود بـ(الآخرة) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ

عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، في مقابلِ الحياة الأولى المُعبَّرِ عنها بقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾؛ ليتمَّ التَّقابُلُ بينهما بينَ فناءِ الحياة الدُّنيا، وبقاء الحياة الآخرة، ودناءة الأولى وهوانها، وشرفِ الثّانيةِ ونفاسَتِها، وهذا من شأنه أن يُحرِّكَ المُتلقِّينَ إلى تأمُّلِ حالِ الطَّرفَيْنِ في نورِ كلٍّ منهما، فيتمكَّنُ المعنى القرآنيُّ في النَّفْسِ، وذلك إحسانٌ إلى المعنى وإلى مُتلقِّيهِ جميعًا.

مِثْلُ الآخِرة الباقية يُؤْثِرُه العاقلونَ على الدُّنيا العاجِلة

سرُّ حذف كلمة (الحياة) في: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾:

لَمّا كان قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾ مقابلًا لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾؛ كان في الكلام حذْفٌ لموصوفٍ، وهو الحياة، أي: والحياةُ الآخرةُ عند ربِّك للمتَّقين، وحسَّنَ الحذفَ العلمُ بالمحذوفِ، وقربُ الدَّليلِ اللَّفظيِّ عليه منه، وقد يكون من دلالات الحذفِ اللَّفْتُ إلى المغايرةِ وعدم التَّساوي بين الحياة الدُّنيا والحياةِ الآخرةِ جملةً وتفصيلًا، وقد دلَّ القرآنُ على نفي التَّسوية بينهما بمِثْلِ الحذف؛ لأنَّ مسلكَه في السّورة في الحديثِ عن أضداد مَن يكفر بالرَّحمن الإيجازُ.

لا تستوي الحياة الدُّنيا والحياةُ الآخرةُ عندَ اللهِ

فائدةُ: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ قيدٌ لمضمونِ الجملة الَّتي طرفاها: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾، ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾؛ فقد نُسِبت (الآخرة)، وأُضيفت إليه تعالى في المعنى، وفائدةُ التَّقييدِ به: بيانُ غايةِ فخامةِ الآخرة وعظمتِها وشرفِها؛ لأنَّ الإضافةَ إلى الجليلِ دالَّةٌ على جلالة المُضافِ إليه[1]، والعِنْديَّةُ تدلُّ على القُرْبِ - وهو هنا قُرْبُ مكانةٍ - على جهة الاستعارة التَّمثيليَّة، فقد مُثِّلَت حالةُ قُرْبِ نعيم الآخرة - الَّذي أعدَّه الله للمُتَّقين - مِن الله، وكذلك قُرْبُ أهلِ التَّقْوَى منه سبحانه بحالةِ قرب النَّعيم الحِسِّي والمُنعَّمينَ به مِن أحدٍ قُرْبًا حِسِّيًّا، قربَ

بيانُ كمالِ شرف الحياة الآخرة في مقابل كمال دناءة الحياة الدُّنيا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 27.

مكانٍ، وقد دلَّ على المستعار منه المشبَّه به لفظُ: ﴿عِندَ﴾، قال القونويُّ: "وقولُهم: كلمةُ: ﴿عِندَ﴾ ليست للمكان، بل للمكانة: يُراد به الاستعارةُ التَّمثيليَّةُ"(1)، وأشار القرآنُ بالوصف بالرَّبِّ إلى أنَّ الجلالة بالحُسْنِ والرّاحة، وبالإضافةِ إليه ﷺ إلى أنَّ ذلك في أعلى الغاياتِ(2)، "وكلمةُ: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، هي جوهرُ المعنى وسِرُّه في هذه الجملة؛ لأنَّها أفادت معنى الأجرِ والثَّوابِ والخيريَّةِ، وقد اكتفَى الكلامُ بذكر كلمة: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ لأنَّ فيها مِن التَّشريف والتَّقدير ما لا يُقادَرُ قدرُه"(3).

بلاغةُ كاف الخطاب النَّبويِّ في لفظ: ﴿رَبِّكَ﴾:

حسدوا نبيَّنا ﷺ، فازداد كمالًا

في إضافة الرَّبِّ إلى كافِ خطابِ نبيِّنا ﷺ تنبيهٌ على غايةِ عِظَم إحسانِ الله إليه، وأنَّ إحسانَه إلى المتَّقين المُتَّبعين له السّائرين على نهجِه مِن إحسانِه إليه، أي: إنَّه يزيدُ في الإحسانِ إليهم والإنعام عليهم، مِن أجلِ نبيِّهم ﷺ، وبهذا يرجِعُ هذا التَّركيبُ: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ إلى التَّركيب: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: 32]، وإذا كان القومُ قد حقدوا عليه، وحسدوه ﷺ حينَ قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: 31]، فإنَّ الله ربَّه قد رقّاه، وزادَه كمالًا وإحسانًا بجعْلِه رأسَ مَن يُحْسِنُ إليهم مِن المتَّقينَ في الآخرة، على ما يُفْهِمُه توجيهُ الخطابِ إليه.

نكتة تقْديم ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

قدَّم القرآنُ ما هو عُمْدَةُ معنى الجملة

كان مُقْتَضَى ظاهرِ النَّظْمِ أن يُقال: (والآخرة للمتَّقين عند ربِّك)، ولكِنْ لَمّا كانَ الغرضُ تحقيرَ نعيم الدُّنيا، وتعظيمَ نعيم الآخرة؛ بادر القرآنُ إلى بيانِ عِظَم ما يكونُ في الآخرة مِن أجْرٍ وثوابٍ لمَن يُؤْمِن

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 17/ 318.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 27.
(3) محمد أبو موسى، آل حم الشورى الزخرف الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 352.

بالرَّحمنِ بتقديمِ القيدِ الحالِ: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ على قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، وجعلِه ملتصقًا بذِكْرِ الآخرة، وفيه أيضًا تشويقٌ لمعرفة أهل تلك الآخرة ونعيمها؛ يُنبئ بفخامتهم ومدحهم، وهم المتَّقون.

دلالةُ اللّام في: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾:

المتَّقون أهلُ اللهِ وخاصَّتُه

اللّامُ في قولِه: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: لامُ الاختصاصِ، والمعنى: والحياة الآخرة عند ربِّك، وما فيها مِن أنواع الملاذِّ والنِّعَم الَّتي يقْصُر عنها البيانُ: خاصَّةٌ بالمتَّقين[1]، وقد قَوِي معنى الاختصاصِ بالقيدِ: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ إذ يدلُّ على غاية وكادة معنى إثباتِ أنَّ الآخرةَ لهُم، فلم يحتج السّياقُ إلى أسلوبِ القَصْرِ، وإنَّما اقتصر على معنى الاختصاصِ بحرفِ اللّام؛ لكمالِ ظهور أنَّ مِثْلَ المُتَّقينَ أهلٌ لذلك العطاءِ الرَّبّانيِّ، في آخِرةِ الرَّبِّ المُنعم الكريم المُحْسِن عظيم الإحسانِ، والَّتي مِن إحسانِه إليها وإلى نعيمها أنْ كانَ فيها سيِّدُ الخَلْقِ، ﷺ.

علَّةُ التَّعبير بالتَّقوى:

أهـلُ نعيم الآخرة جمعوا بين تعظيم الله تعالى وتوقير رسوله ﷺ

قولُه تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي: الَّذين يجعلون بينهم وبين غضبِ اللّه وسخطه وقايةً، مِن الإيمانِ والأعمالِ الصّالحاتِ أقوالًا وأفعالًا، فهُم جميعًا أهلُ خوفٍ، وأهمُّ أفرادِ التَّقوى في السِّياق ما يُقابِلُ الكفرَ بالرَّحمنِ، والتَّقليلَ مِن شأنِ النَّبيِّ العدنان، فعبَّر القرآنُ بصفة التَّقوى؛ مناسبةً مع سياقِ الغضب الإلهيِّ؛ بسبب استدراكهم على اللّه، بقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: 31]، فإنَّ ذلك القولَ منهم نِتاجُ جرْأةٍ شديدةٍ على اللّه، ثمَّ على مقام رسوله، وغفلةٍ عظيمةٍ عن حقِّ اللّه ورسولِه، فلم يخافوا مِن غضبه وعذابه، وسخطِه وعقابِه، وعبَّر بها أيضًا؛ تمهيدًا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 27، والآلوسي، روح المعاني: 25/ 80.

لذِكْر الغفلةِ عن ذِكْرِ اللهِ ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾، فإنَّ الغفلة عن ذلك تكون بمقدار خلوِّ القلبِ مِن تقوى الله.

دلالةُ التَّعريف بـ(ال) في: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾:

عرَّفَ القرآنُ أهلَ الآخرة: (المتقين) بـ: (الـ)، وهي للجنسِ، أي: إنَّ الآخرة عند ربِّكَ لكلِّ مَنِ اتَّصَف بالتَّقوى في كلِّ عَصْرٍ ومِصْرٍ وجِنْسٍ، فيدخلُ فيهم الفقيرُ والغنيُّ، والصَّغيرُ والكبيرُ، والذَّكَرُ والأنثَى، والأبيضُ والأسودُ، والعربيُّ والأعجميُّ، وهذا يعني عِظَمَ الاتِّصافِ بالتَّقوى.

طـاعـةُ الـلـهِ تُؤلِّفُ، ولا تُفرِّقُ

دلالةُ حذف متعلَّق ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: اسمُ فاعلٍ مِن الفعل: (اتَّقى)، دخلتْ عليه اللّامُ الجارَّةُ، وفعلُه يتعدَّى بنفْسِه، كما في كثيرٍ مِن آي الذِّكْر الحكيم، ولكِنَّ القرآنَ هنا لم يذكُر له متعلَّقًا، بل قال: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ الآية؛ للعِلْمِ بالمُتعلَّقِ مِن السِّياق، فهُم الَّذين اتَّقوا ما وقَع فيه أضدادُهُم مِن الكفر والمعاصي، معَ توفير الإيجاز، والانسجام الصَّوتيِّ، بالتَّوافُق معَ الفواصلِ السَّابقةِ عليها، واللَّاحِقَةِ لها، ويجوزُ أن يكونوا لمَّا غلَبَت عليهم صفةُ التَّقْوى، فصاروا مُتَّقِينَ الكفرَ بالرَّحمنِ وجمهورَ المعاصي؛ كانتِ التَّقوى صفةً لهم في كلِّ حالٍ مِن غيرِ نظَرٍ إلى مفعولٍ بعينه، فإنَّ اتِّقاءَ الكفرِ بالرَّحمن منزلةٌ جليلةٌ ورُتْبةٌ عليَّةٌ في باب التَّقوى، فهي أمُّ هذا البابِ.

حـذفـوا الـدُّنْـيـا مِـن قـلـوبِـهـم؛ لـخـوفـهـم الشَّديد مِن الله

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والخمسون،
سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 53 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-644-66-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 53 : المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-644-66-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4811073 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"